مجلة رفـوف ISSN: 2335-1381
المجلد: السابع /العدد: الثالث سبتمبر 2019

إشْكَالِيَّةَ الحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ وَتَجَلِّيَاتِهَا فِي الأدَبِ الصُّوفِيِّ

The Problematic of the Muhammadiyah Truth and Its Appearance in Sufi Literature

طارق زيناي، أستاذ محاضر قسم (أ)
جامعة العربي بن مهيدي * أم البواقي *
- البريد الإلكتروني: zinaitarek@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/02/17	تاريخ القبول:2019/09/17	تاريخ النشر:2019/09/30

الملخص :

يعدُّ موضوع الحقيقة المحمدية واحدا من بين أهم النظريات التي أنتجها العرفان الصوفي، في مراحل زمنية متفاوتة، ارتبطت منذ البداية بالنظرة إلى الإنسان الكامل، فانتقلت من وصف الولاية في صيغتها الشرعية، ثم ما لبثت أن تطور مدلولها مع الأطروحات الصوفية المتقدمة، وبخاصة مع الحلاج، ووصلت مرحلة النضج مع ابن عربي والقونوي والجيلي، والتي أعيدت صياغتها انطلاقا من النظرة الصوفية المستحدثة للذات النبوية في شقها الروحي النوراني.

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ : الحقيقة المحمدية؛ العرفان، النور، التصوف، ابن عربي.

Astract :
Muhammadiyah truth is one of the most important theories produced by Sufism-Sufi, through successive periods of time linked at the beginning to the image of the perfect human. Then, moved from the description of *al-wilaya* clergy in its legal form then soon its significance developed with the early Sufi hypotheses brought mainly by al-Hallaj. This form reached its maturity with Ibn al-Arabi, al-Qawnawi and al-Jili where it has been reformulated starting from mystical vision developed for self prophetic in its spiritual and lightening aspect.

Keywords : Muhammadiyah truth , gratitude, light, mysticism, Ibn Arabi.

نَصُّ المَقَالِ :

إنَّ المتأمل للخطاب الصوفي في تمظهراته العرفانية عبر عصوره المتلاحقة، يرى استبطانه مجموعة من الطروحات المُشْكَلَةِ، التي ما فتئت تفتح مدارات للنقاش والحوار والجدل، وبخاصة مع انفتاح هذا الخطاب على الوافد الثقافي، وانتقاله من خصوصية الطرح الإسلامي المؤسس على النصوص الشرعية، وسيرة الصدر الأول من السلف الأول، إلى الأقوال والأفكار التي نحت به إلى فضاءات غنوصية، فتحت الباب واسعا لظهور نظريات كانت لها تبعات مؤثرة في البنية الفكرية والمعرفية لهذا الخطاب، ولعلَّ من بين أهم القضايا التي دار حولها نقاش وخلاف هو رؤية الصوفية لبعض الذوات الكاملة من البشر، أو ما يعرف بنظرية الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية، والتي تعدُّ في كثير من

تصوراتها ومفاهيمها رجع صدى لأراء قبلية خاصة بالأمم السابقة، وثانيا لمنطوق كثير من النصوص الدينية المؤسِّسَة، ولعلنا في هذا الصدد نتساءل عن مفهوم الحقيقة المحمدية والخلفيات المعرفية التي كانت سببا في ظهورها ؟ وكيف تجلت في الأدب الصوفي؟

إن هذه الدراسة تهدف عبر المحطات السابقة، الواردة في الإشكالية المراد الإجابة عنها، هو الحفر عند عتبات المصادر الصوفية للكشف عن محل إعراب نظرية الحقيقة المحمدية، بوصفها من بين أهم الأطروحات التي انبنى عليها العرفان الصوفي [1]، والتي لها علاقة بعديد القضايا الابستيمولوجية، كنظرية وحدة الوجود والإنسان الكامل، والتعيُّنات الوجودية...

1) مَفْهُومُ الحَقِيقَةِ المُحَمَدِيَّةِ:

وتسمى كذلك الإنسان الكامل، والكلمة المحمدية، والنور المحمدي، وحقيقة محمد صلى الله عليه وسلم، وقبة الوجود، والدرة البيضاء، والحقيقة الكلية، وواسطة الفيض، وحقيقة الحقائق وغيرها...

جاء في تعريف الحقيقة المحمدية أنها : « أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب » [2] أو هي« التعين الأول الذي ظهرت منه النبوة والرسالة والولاية، ونشأت عنه جميع التعينات، ولأجل ذلك كان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام سيد الوجود، وأصل كل موجود، وهو أول الأولين، وخاتم النبيين،

[1]– إنَّ المقصود بالعرفان : « هو العلم بأسرار الحقائق الدينية، وهو أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين، أو لأهل الظاهر من رجال الدين » جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج01، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 72.

[2]– أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط01، 2000، ص56.

المختصُّ بالاسم الأعظم الذاتي الذي لا يكون إلا له دون جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، من حيث إنه المرجع الأصلي لجميع التعينات » [1]

من التعريفين السابقين يتبين لنا أن الحقيقة المحمدية لا تخرج عن كونها فكرة عرفانية أوجدها المخيال الصوفي عبر فترات زمنية متفاوتة، وهي تنظر إلى الذات المحمدية في شقها الروحاني، فتجعله أول موجود وأكرم متعين، وأقرب مخلوق جاها إلى الذات الإلهية.

ولا يمكن فهم معنى أول موجود أو التنزل الأول إلا إذا فهمنا أطوار الوجود في التصور الصوفي، والذي يبدأ بمفهوم العماء؛ وفي هذا الطور حتى الذات الإلهية لا توصف بوصف، ولا تسمى باسم، ولا تحدُّ بحدٍّ، ويسمى هذا الطور : الوجود المطلق أو الحضرة الأَحَدَيَّةِ (التي لا يظهر فيها شيء من الأسماء والصفات)، والتي تتعيَّن منها الحضرة الوَاحِدِيَّةِ؛ التي هي حضرة الأسماء والصفات، وفي هذا الطور تكتمل صورة الحضرة الإلهية، والعماء بعد التعين الإلهي الكامل أراد أن يتعين بحيث يخرج من التجريد إلى التحقق، حتى يُعرف، أو يعرف نفسه، فتعين في صورة ((الحقيقة المحمدية))، فهي بهذا المعنى أول موجود متحقِّق من العماء، أو عند بعض الصوفية التعين الأول للحضرة الإلهية، أو ما يسمى بالفتق بعد الرتق.

فالحقيقة المحمدية يُنظر إليها – إذن – باعتبارين:

الأول : باعتبار ظاهره، حيث يوصف بالعبودية.

الثاني : باعتبار باطنه، حيث يوصف بالربوبية.

[1] – رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط01، 1999، ص300 – 301.

إنَّ الحقيقة المحمدية هي المجموع الأكمل الذي اجتمع فيه ما تفرَّق في الوجود كله، ومنها ظهرت التنزلات المنفصلة بدءا بالقلم واللوح والوجود والأنبياء كلهم من لدن آدم وانتهاءً بورثة النور المحمدي من الأولياء العارفين كالأقطاب [1] والأوتاد [2] والأبدال [3] ومن يليهم من أصحاب الكمالات.

يعدُّ ابن عربي [4] أبرز من بسط نظرية الحقيقة المحمدية في كتابيه فصوص الحكم والفتوحات المكية، حيث تناولها بأكثر من وجه، لكل وجه مقتضى

---

[1] – **القطب** : هو رجل موضع نظر الله وحفظه ومعيته، من العالم في كل زمان، خُلقَ على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فهو باطن خاتم النبوة، وله عديد الأوصاف منها قطب العالم وقطب الأقطاب والقطب الأكبر وقطب المدار وخاتم الولاية، يعرِّفه الشريف الجرجاني بأنه : « عبارة عن الواحد، الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، أعطاه الله الطِّلَّسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون، وأعيانه الباطنة، والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعمّ، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات غير المجعولة » التعريفات، تح : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، 2004، ص 149.

[2] – **الوتد أو العمد** : وهم أربعة نفر على منازل الجهات الأربع من العالم : الشرق والغرب والشمال والجنوب، يقال إن ألقابهم : عبد الحي وعبد العليم وعبد القادر وعبد المريد، يحفظ الله بهم الجهات لأنهم محل نظره، وقد تعين لكل واحد منهم مقاما في جهة من الجهات؛ لأنها الأليق به والأنسب له روحانيا وجسمانيا، وهو أقل منزلة في درجات الكمال من القطب لأنه يصدر عنه، ويفيض منه.

[3] – **البدل:** وهم سبعة نفر، وسُمُّوا أبدالا لأن الواحد منهم يسافر عن موضع ويترك جسدا على صورته فيه، بحيث لا يعرف أحد أنه فُقِدَ، أو أن تتبدل إرادتهم بإرادة الحق، وهو أقل منزلة في درجات الكمال من الوتد، يقول عنهم ابن عربي : « ثَمَّ رجالا سبعة يقال لهم الأبدال، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة؛ لكل بدل أقليمٌ، وإليهم تنظر روحانيات السماوات السبع، ولكل شخص منهم قوة (منبعثة) من روحانيات الأنبياء الكائنين في هذه السماوات» الفتوحات المكية، ج02، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، 1992، ط01، ص 376.

[4] – **ابن عربي** : هو أبو بكر محي الدين محمد بن علي ابن عربي الطائي، الملقب بـ (سلطان العارفين) أو (الشيخ الأكبر)، صوفي وفيلسوف وأديب وشاعر ووشاح، أندلسي المولد؛ ولد بمرسيه سنة 560هـ، في كنف أسرة غنية وعريقة، اختلف فيه الناس اختلافا واضحا، قديما وحديثا، مع اتفاقهم على أنه من أعلم الصوفية وأعرفهم على مرِّ العصور، يعدُّ من أغزر الصوفية تأليفا، بل من أغزر علماء الإسلام قاطبة كمًّا وكيفا، حيث وصل بها عبد الرحمن الجامي إلى خمسمائة كتاب، ومن مؤلفاته : الفتوحات المكية، فصوص الحكم، اصطلاحات الصوفية، شرح أسماء الله الحسنى، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية... وبعد تطواف وسياحة في أرض الله، استقر أخيرا به المقام في صالحية ((دمشق))، حيث ألف فيها معظم مؤلفاته وأشهرها، وبها كانت وفاته ليلة الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة 638هـ، عن عمر ناهز 78 عاما، ودفن عند سفح جبل قاسيون. يُنظر :
– آسين بلاثيوس، حياته ومذهبه، تر : عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1965.

معين متعلق إما بالذات الإلهية وإما بالحقائق الوجودية الغيبية، وإما بالأرواح النبوية، وإما بحقيقة دوران الزمان، بحيث إن من يحاول أن يجمع ما كتبه حول هذه القضية يجدُ نفسه موزعا بين عدة مباحث تجتمع وتفترق في الآن نفسه، ولهذا لا يمكن إلا التوقف عند بعض المحطات التي تظهر من خلالها ماهية فكرة الحقيقة المحمدية عنده، فمثلا نراه يجعل بدء العالم متعلقا بالهباء ومنه جاءت الحقيقة المحمدية لمَّا كان ولا شيء معه، فيقول : « فلما أراد تعالى وجود العالم، وبدأه على حدِّ ما علمه بعلمه بنفسه، انفعل عن تعلك الإرادة المقدسة، بضرب تجلٍّ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية، انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء؛ هي بمنزلة طرح البنَّاءِ الجِصَّ، ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهذا أول موجود في العالم (...) ثم إنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء – ويسميه أصحاب الأفكار الهيولى الكلي – والعالَم كله فيه القوة والصلاحية، فقبل منه كل شيء في ذلك الهباء، على حسب قوته واستعداده، كما تقبل زوايا البيت نور السراج؛ وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتدُّ ضوؤه وقبوله، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ ﴾ [النور : 35] فشبه نوره بالمصباح، فلم يكن أقرب إليه قبولا في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم، المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك

– سعاد الحكيم، ابن عربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، 1991.

– نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2002.

– عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي سلطان العارفين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

– محمد العدلوني الإدريسي، ابن عربي ومذهبه الصوفي الفلسفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2004.

– محمد إبراهيم فيومي، ابن عربي صاحب الفتوحات المكية، الدار المصرية اللبنانية، دط، دت.

– ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2010.

– علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط01، 1984، ص 277 – 428.

النور الإلهي، ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية، وفي الهباء وُجِدَ عَيْنُهُ، وعين العالم من تجليه ... » [1]

في النص السابق يبين لنا أن ابن عربي يجعل من الحقيقة المحمدية أول تجلٍّ وجودي متعين من الهباء، وذلك بعدما أراد الله أن يخلق الخلق، بعدما كان ولا شيء معه، فهو من الله كالنور من المشكاة، ومن هذه الحقيقة المحمدية تجلَّى العالم، ولكن رب سائل يسأل : إذا كانت الحقيقة المحمدية أول وجود ليس قبله شيء، فلابد من أن يكون قبل تعينه إما جوهرا أو عرضا، فإذا كان جوهرا، فلابد له من محلٍّ؛ لأن الجوهر لا يفتقر لمكان أو محلٍّ، بحيث لا يستقل بالوجود دونه، فإذا تعينت مع المكان الذي فيه محلها، أصبح الوجود الأوليُّ لهما كلاهما، إما إذا كان عرضا، فالعرض هو مما لا وجود له ثابت، وهو خلاف الحقيقة المحمدية، فلا أولية لها حينذاك !! والجواب عن هذا لا يمكن أن يقارب بمنطق العقل والنظر، لأن هذه الحقيقة عند الصوفية هي مما شاءه الله وأراده، وإن كانت غير مستساغة عقلا، فالله كما قدر على إيجاد الخلق من عدم، قادر على إيجاد الخلق من غير محلٍّ يحل فيه، هذه الحقيقة التي يقول عنه البسطامي : « عرج بروحي، فخرقت الملكوت، فما مررت بروح نبي إلا سلمت عليه، وأقرأتها السلام، غير روح محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه كان حوله ألف حجابٍ من نور، كادت أن تحترق عند أول لمحة » [2]

وفي موضع آخر نجد ابن عربي يربط بين التعين المحمدي في الوجود الغيبي وبين بدء فلك الزمان في الدوران، الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : «

[1] – محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج02 ، مرجع سبق ذكره، ص 226 – 227.

[2] – أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة ويليها كتاب تأويل الشطح، تح : قاسم محمد عباس، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا / لبنان، ط01، 2004، ص 89.

إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ » [1] فيقول : « اعلم – أيدك الله – أنه لمَّا خلق الله الأرواح، المحصورةَ المدبرة للأجسام بالزمان عند وجود حركة الفلك لتعيين المدة المعلومة عند الله، وكان عند أول خلق الزمان بحركته خلق الله الروح المدبرة روح محمد صلى الله عليه وسلم، ثم صدرت الأرواح عند الحركات، فكان لها (أي لروح محمد) وجود في عالم الغيب دون عالم الشهادة، وأعلمه الله بنبوته، وبشره بها وآدم لم يكن إلا كما قال : ((بين الماء والطين))، وانتهى الزمان بالاسم الباطن في حق محمد صلى الله عليه وسلم ! إلى وجود جسمه وارتباط الروح به، فعند ذلك انتقل حكم الزمان في جريانه إلى الظاهر فظهر محمد صلى الله عليه وسلم بذاته جسما وروحا، فكان الحكم له باطنا أولا في جميع ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين... » [2]، فهو بهذا المعنى أول الأولين في عالم الغيب وآخر الآخرين في عالم الشهادة، بل وأول تعيُّن مرتبط بحركة الزمان، ومنه ظهرت ما لا حدَّ له من التعينات الأخرى، أي أنه الوجود البرزخي بين الذات الأحدية وبين جميع الموجودات.

إنَّ هذه المكانة التي نالتها الروح المحمدية في الأزل ترجع لما خُصَّت به من كمال له قابلية استيعاب وتمثل الأسماء والصفات الإلهية المتجلية فيه، فإذا كان كل فرد من الموجودات يعتبر مجلى خاصا لبعض الأسماء الإلهية، فإن النور المحمدي انفرد بأنه تجلي الاسم الأعظم الجامع لجميع تلك الأسماء، وهو الله، فهي ترجع إليه رجوع الفرع إلى الأصل، ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة (جمع كمالات الأسماء والصفات) ومرتبة التعين (التجلي) الأول الذي تعينت به الذات الأحدية، فهو بهذا أول تعين للذات الإلهية، ومنه تعيَّنت سائر

[1] – رواه محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج03، تح : محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط01، 1422هـ، ص 236، الحديث رقم [4662].

[2] – محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 330–331.

المخلوقات، وهو صورة الحق وعين الله وعين العالم ونقطة الدائرة، المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى؛ لأن الله ينظر بنظره إلى العالم فيرحمه [1]، وهو عند ابن عربي « القلم الأعلى الذي أبدعه الله – تعالى – من غير شيء » [2]وهو بهذا التأويل قد فك الاشتباه الواقع بين قول الصوفية إن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أول مخلوق متعينٍ، وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ القَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ » [3]

إن ابن عربي كي يقرب صورة منزلة الحقيقة المحمدية من الذات الإلهية، رأى أن الله لما خلق العالم وأوجده، كان شبحا لا روح فيه، فكان كأنه مرآة غير مصقولة ولا مجلوة، فكان آدم (الإنسان) هو جلاء تلك المرآة وروحها، وهذه الموجودات المتكاثرة والمتعددة، تشكل في إفرادها صفة من الصفات الإلهية ومظهرا من مظاهرها فهي لا تجتمع إلا في هذا الإنسان القابل لجميع التعينات الإسمائية والصفاتية، ولهذا خلقه على صورته، من حيث اتصافه بما يتصف الله به ، فالإنسان بوصفه عالما صغيرا، أو العالم بوصفه إنسانا كبيرا يشكلان المرآة التي يرى الحقُّ فيها نفسه، ولما كانت الحقيقة المحمدية هي أجلى صورة يظهر فيها الحق، كان جامعا لكل الموجودات التي في الأصل خلقت من نوره، كما سلف ذكره، بل إن الموجودات منوط وجودها وعدمها بالإنسان الكامل جسمانيا (آدم) وروحانيا (محمد)، يقول ابن عربي في هذا دوران الخلق مع الإنسان

---

[1] – يُنظر: عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تح : عبد العال شاهين، دار المنار للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط01، 1992، ص151.

[2] – الفتوحات المكية، ج02، مصدر سبق ذكره، ص97.

[3] – رواه أبو عيسى الترمذي، السنن، ج04، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط02، 1975، ص 457. الحديث رقم [2155]، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج01، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط03، 1988، ص 405. الحديث رقم [2016].

الكامل وجودا وعدما : « فلا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذه الإنسان الكامل، ألا تراه إذا زال وفُكَّ من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق فيها، وخرج ما كان فيها، والتحق بعضه ببعض، وانتقل الأمر إلى الآخرة، فكان ختما على الخزانة الآخرة ختما أبديًّا » [1]

هذا وقد أجملت سعاد الحكيم في معجمها وظائف الحقيقة المحمدية كما يراها ابن عربي فرأت أنها لا تخرج عما يأتي [2]:

1.1. من حيث صلتها بالعالم :

حيث تظهر أنها هي مبدأ الخلق وعلّته، فهي أول ما خلق الله بدليل الحديث الذي يستدلُّ بها القوم، وهو ما يُنسب للنبي صلى الله عليه وسلم قوله : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورَ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ » [3] ومن نوره خُلِقَ كل شيء، إذ لولاها

---

[1] – محي الدين بن عربي، فصوص الحكم، تح: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، دت، ص50.

[2] – يُنظر: سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة)، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 1981، ص 348.

[3] – هذا الحديث لم يرد في كتب السنة كلّها، وإنما هو مشتهر بين الناس، ذكره أبو الفدا إسماعيل العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج01، تح : عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2000، ص 302. وقد حكم عليه محمد ناصر الدين الألباني بالبطلان لمخالفته صحيح الأحاديث التي فيها أن أول ما خلق الله القلم، وأن آدم الذي منه نبينا صلى الله عليه وسلم إنما خلق من طين – وإن كان ابن عربي كما سبق يجمع بين الحديثين باعتباره صلى الله عليه وسلم هو القلم الأعلى – يقول الألباني معقبا على الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والبيهقي وغيرهم : ((خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما قد وصف لكم)): « وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: " أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر ". ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه صلى الله عليه وسلم خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين » سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج01، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1995، ص 820، يُنظر كذلك : محمد ناصر الدين الألباني، موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني، ج03، جمعه: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء، اليمن، ط01، 2010، ص 816.

لما كان هناك خلق ولا بعث ولا نشور ولا جزاء، ويسدلُّون بما يُنسب للنبي صلى الله عليه وسلم : « لولاك لولاك مَا خلقت الأفلاك » [1]، وهي كذلك أول مراحل التنزل الإلهي في صور الوجود.

2.1. من ناحية صلتها بالإنسان :

حيث يعتبرها ابن عربي هي أصل التعين الكمالي البشري، فهي الصورة التامة المطلقة للإنسان الكامل، الذي اجتمعت فيه حقائق الوجود كلها، وهذا ما ذكره عبد الكريم الجيلي [2] أنَّ الإنسان الكامل، لا يخرج أبدا عن الحمى النوراني للحقيقة المحمدية، فيقول : « اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به

---

[1] – أورد هذا الحديث أبو الفدا إسماعيل العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس ،ج02، تح : عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2000، ص192، الحديث رقم [2123]، وقد حكم عليه محمد ناصر الدين الألباني بالوضع، بقوله : « ومثله ما اشتهر على ألسنة الناس: لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك فإنه موضوع كما قاله الصنعاني ووافقه الشوكاني في "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" » التوسل أنواعه وأحكامه، تح : محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط01، 2001، ص 115، يُنظر كذلك لبعض الألفاظ الأخرى لهذا الحديث كـ : ((لولاك مَا خلقت الْجنَّة، ولولاك مَا خلقت النَّار))، و((لولاك مَا خلقت الدُّنْيَا))، أبو المحاسن محمد بن خليل الطرابلسي، اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع، تح : فواز أحمد زمرلي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط01، 1415هـ، ص 154.

[2] – **الجيلي** : هو عبد الكريم بن إبراهيم، يلقب بقطب الدين، الجيلي أو الجيلاني، نسبة إلى جيلان من أرض طبرستان، هو من أحفاد عبد القادر الجيلاني المعروف، ولد الجيلي سنة 767هـ، طلب العلم أولا بالعراق ثم سافر إلى فارس ومنها إلى الهند، ثم إلى مكة حيث لقي الصوفية المجاورين للبيت الحرام، يعدُّ من صوفية العرفان المتقدمين من مثل ابن عربي وابن الفارض والتلمساني... توفي سنة 832هـ، من مؤلفاته : الكهف والرقيم، جنة المعارف وغاية المريد العارف، المناظر الإلهية، وغيرها، لكن أشهرها الذي فيه مجمل فلسفته هو : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. يُنظر :

– يوسف زيدان، الفكر الصوفي بين عبد الكريم الجيلي وكبار الصوفية، دار الأمين للنشر والتوزيع، سوهاج، مصر، ط02، 1998.

– يوسف زيدان، عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر 1988.

باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين » [1] ويسير ابن عربي في هذا المعنى، مقررا هذه الحقيقة – على حسب رؤيته الكلية للوجود – حيث يرى أنه إذا كانت الحضرة الإلهية تتجلى في صور الموجودات، وكان الإنسان أعظم هذه المخلوقات بالنشأة والخلافة، كان تجلي الحق فيه أعظم وأكمل، فهو الكون الجامع والمختصر الشريف وأتمُّ مجالي الحق، ولما كان أكمل البشر هو صورة الحقيقة المحمدية الحاملة لجماع معاني الأسماء الإلهية، والمتجلية في كل نبي وولي عينا وشهودا، فهو على حدِّ تعبير عبد الكريم الجيلي : « الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات، والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل، فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى نفسه إلا بمرآة الاسم " الله " فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضا مرآة الحق. فإن الحق تعالى أوجب على نفسه ألا ترى أسماؤه ولا صفاته إلا في الإنسان الكامل » [2]

ولما كان خلق جنس البشر من آدم عليه السلام، الذي هو بدوره خلق من عناصر الوجود الأربعة : الماء والنار والتراب والهواء، كان خلقه جسمانيا كثيفا متأخرا عن خلقه روحانيا لطيفا، بوصف الأخيرة نور شع من نور محمد صلى الله عليه وسلم، المخلوق في العماء حيث كان الله ولا شيء معه، فآدم – عليه السلام – هو أب لنا في التكوين الجسماني، ومحمدا صلى الله عليه وسلم هو أب لنا في التكوين الروحاني، بل الأنبياء كلهم وإن كانوا قد سبقوه في عالم الشهادة، فهو سابقهم في عالم الغيب، فإذا كان الأنبياء والأولياء يتفاضلون في مراتب الكمال،

[1] – عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط01، 1997، ص210.

[2] – المصدر نفسه، ص 212، 213.

فمنهم الكامل والأكمل، فإنه « لم يتعين أحد منهم بما تعين به محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الوجود من الكمال الذي قُطِعَ له بانفراده فيه؛ شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله، فهو الإنسان الكامل والباقون من الأنبياء والأولياء والكمل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل، ومنتسبون إليه انتساب الفاضل إلى الأفضل » [1]، بل إنه أشرق فيه من شموس الأنوار، ما تفرق في غيره من الأنبياء والرسل والكمل من البشر، فإذا كان ظاهره هو أصل الشرائع، فإن باطنه هو أصل الحقائق، فكل فعله وقوله وحاله وَخَلْقِهِ وَخُلُقِهِ هو أصل الكمال والجمال البشري، وهو الصورة المصغرة عن الله تعالى جمالا وكمالا.

3.1. من الناحية الصوفية:

تتجلى الحقيقة المحمدية في علاقتها بورثة النور المحمدي من الأنبياء والأولياء والعرفاء أنها المشكاة، التي منها سطع نور الحقيقة الإلهية وشمس المعرفة الباطنية، فكل من كان قبله من الرسل والأنبياء ومن جاء بعده من الأولياء والعرفاء فباطنهم موصول بباطنه، ونورهم موصول بنوره، لأنه الصورة الكاملة والجامعة المنطبع فيها اسم الله الباطن.

يذهب زكي مبارك إلى الربط بين مقولة الأب والابن في الفكر الديني المسيحي وبين حقيقة العلاقة بين الذات الإلهية والحقيقة المحمدية، ويرى أنَّ التأثير المسيحي واضح من هذه الجهة، فيقول : « فعيسى هو ابن الله، ومعنى ذلك فيما أفترض أنه الصلة بين الله وبين الوجود، ومحمد هو أول التعيُّنات، وليس فوقه إلَّا الذات الأحدية، كما لم يكن فوق عيسى إلا الأب؛ أي الله،

[1] – المصدر نفسه، ص 207.

والنصارى يتمثلون الله حين يخاطبون عيسى، فلولا عيسى لانعدم الوجود، والصوفية يتمثلون الله حين يخاطبون محمدا، فلولا محمد لانعدم الوجود... » [1]، والذي يظهر أنَّ الأمر عند الصوفية أعمق من هذه المقابلة، حيث إن فكرة الحقيقة المحمدية كما أنها تحدد علاقة خاصة بين الذات الإلهية والذات المحمدية، إلا أنها لا تفترض ابنا وابنا، وإنما ربًّا وعبدا، لكنه ليس ككل العباد، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن محمدا في كماله يشكل أقنوما واحدا، بينما عيسى عليه السلام مع الأب وروح القدس يشكل ثلاثة أقانيم، ومع هذا يمكن القول إن هذه العلاقة يمكن القول بها شكليا فقط، وإلا فإن الفرق واضح لا غبار عليه، ويشبه ذلك ما كان عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية من أمر علي رضي الله عنه، وأنه هو الصلة بين الله والوجود.

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى أنَّه في زمان الرسل يكون الكامل – لا محالة – رسولا أو نبيا، وفي حالة انقطاع الرسالة، يكون الكامل وارثا للنبي أو الرسول، مع وجوب أن لا يكون نبي ووارث متزامنين، إذا الوارث لا يرث ما يرث من مورِّثه إلا بعد موته.

ولابد من التنبيه إلى المخيال الصوفي لا يقصد بالحقيقة المحمدية شخص الرسول صلى الله عليه وسلم المتعين في عالم الشهود، بل يقصد بها الروح أو النور المحمدي الأزلي المخلوق من النور الإلهي، بل حتى ذكرهم للكمل من الأولياء، إنما هو فرع من الحديث عن الحقيقة المحمدية، وهذا الكلام يجرنا للكلام عن ختم النبوة في مقابل ختم الولاية، فخاتم الأولياء، كما أنه يأخذ من خاتم الأنبياء الشريعة، فهو آخذ عن الله الحقيقة، فإذا كان الأنبياء يأخذون من خاتم النبوة في تجسده النوراني المحمدي، فإن خاتم الأولياء كذلك يدخل معهم، إذ هو

[1] – زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج01، مطبعة الاعتماد، مصر، ط01، 1938، ص 112– 113.

نال هذه المنزلة، وآدم بين الماء والطين، بخلاف غيره من الأولياء، الذي لا يكون الواحد منهم وليًّا إلا بما يحصله من شروط الولاية المنصوص عليها عندهم « فخاتم الرسل من حيث ولايته، نسبته مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه » (1)

إن الكلام عن الحقيقة المحمدية يأخذنا للكلام عن الحقيقة الأحمدية، بوصفها من أعظم المقامات التي لا مطمع لأحد في الوصول إليها، أو إدراك كنهها، وحقيقتها هي « الأمر الذي سبق به صلى الله عليه وسلم في الحمد على كل حامدٍ من الوجود، فما حمد اللهَ أحدٌ في الوجود مثل ما حمده النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنها في نفسها غيب من أعظم غيوب الله تعالى، فلم يطلع أحدٌ على ما فيها من المعارف والعلوم والأسرار والفيوضات والتجليات والمنح والمواهب والأحوال العلية، والأخلاق الزكية » (2) فهي بهذا المعنى مما اختص الله به نبيه، فلا يطلع عليه كائن من كان، فهي شيء زائد على الحقيقة المحمدية بكونها غيبا محضا، هذا من جهة ومن جهة ثانية دلالتها على مقام الحمد، الذي به طال النور المحمدي غيره، فهو أحمد الناس لله على الإطلاق.

2) الأُصُولُ الَمَعْرِفِيَّةُ لِنَظَرِيَّةِ الحَقِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ :

لاشك أنَّ احتفاء الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم الرسول والإمام والقدوة والمشرِّع والإنسان، قد كان محلَّ اتفاق بين المسلمين كلهم، لم يختلف في ذلك اثنان، لكنَّ القدر الزائد الذي تفرَّد به الصوفية عن سائر المسلمين هو أنهم رأوا في محمد صلى الله عليه وسلم النور والحقيقة والسرَّ، الذي ما وصل إليه مخلوق قبله ولا بعده، ولعلَّ الذي جعل مسار تلقي هذا النبي الكريم عند المسلمين يأخذ

(1) – عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار السيرة، بيروت، لبنان ،ط02، 1987، ص87.
(2) – أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، مرجع سبق ذكره، ص 56.

مسارا آخر هو مجموع التصورات التي استقاها الصوفية، وبخاصة في القرن الرابع الهجري، من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وحتى المصادر الأجنبية، التي شكَّلت في متخيل العرفاء آنذاك نظرية خاصةً عرفت فيما بعد بالحقيقة المحمدية، هذه النظرية التي ركَّزت اهتمامها على الوجود القبلي للنور المحمدي، وأنه كان موجودا في الهباء « الذي فتح الله فيه أجساد العالم، مع أنه لا عين له في الوجود إلا بالصور التي فتحت فيه » [1]، حيث إن الله تجلى لهذا الهباء بنوره، فقبل كلُّ شيء في هذا العالم المعقول النورَ الإلهي حسب قربهم للحق تعالى، فما كان أقرب في هذا الهباء من النور المحمدي، ولهذا في عالم التعين أو الفتق سيخلق كل شيء من نوره، فهو بهذا المعنى مبدأ ظهور العالم، والعلة الحقيقية له، يقول الحلاج [2] في بيان هذه الأولية النورانية للحقيقة المحمدية: « أنوار النبوة من نوره

---

[1] – علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، مرجع سبق ذكره ، ص 214.

[2] – **الحلاج** : هو أبو المغيث الحسين بن منصور، الملقب بـ ((الحلاج))، ولد بمدينة البيضاء، أحد أهم المدن الفارسية، كان جدُّه مجوسيا، نشأ بتستر فتتلمذ على يد سَهْلِ بن عبد الله التَّسْتُرِي، صَحب الْجُنَيْد وَأَبا الْحُسَيْن النوري ، يعدُّ من أعبد الناس، وقد كثرت أخباره ورواها المؤرخون، بحيث إنها تجسد في معظمها شخصية إشكالية متميزة، ملأت الدنيا واشغلت الناس، حتى إنها أصبحت سيرة شعبية تحكي أكبر ذنب يرتكبه المحبُّ، وهو إفشاء سر محبوبه، فأصبح لها ظهور في كثير من الثقافات كالفارسية والهندية والسِّندية والتركية، علاوة على ظهوره في كثير من المنجزات الأدبية العربية، كما عند أدونيس وعبد الوهاب والبياتي، بل كتب صلاح عبد الصبور مسرحية شهيرة بعنوان ((مأساة الحلاج))، مات يوم الثلاثاء لستّ بقين من ذي القعدة سنة 309 هـ حضر جنازته خلق كثير لا يحصى عددهم، حيث ضرب ألف سوط فما استعفى ولا تأوه، ثم قطعت يده، ثم رجله، ثم يده، ثم رجله، وحز رأسه، وأحرقت جثته، ولما صارت رمادا ألقيت فِي دجلة، ونصب الرأس يومين بِبَغْداد عَلَى الجسر، من مؤلفاته : "الطَّوَاسِينُ" وكِتَابُ " الأَحرفِ المُحْدَثَةِ وَالأَزليَّةِ" وكِتَابُ "ظلٌّ مَمْدُوْدٌ" وكِتَابُ "حَملُ النُّوْرِ وَالحَيَاةِ وَالأَرْوَاحِ"وكِتَابُ و"عِلمُ الفَنَاءِ وَالبَقَاءِ" وكِتَابُ "شَخص الظُّلمَاتِ" وكِتَابُ "القِيَامَات" وكِتَابُ "الكِبر وَالعَظمَة".يُنظر :

– الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، جمع : قاسم محمد عباس، رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2002.

– علي بن أنجب الساعي البغدادي، أخبار الحلاج، تح: موفق فوزي الجبر، دار الطليعة الجديدة، دمشق سوريا، ط02، 1997.

– لويس ماسينيون، آلام الحلاج، تر: الحسين مصطفى حلاج، شركة قُدمس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2004.

– روجيه أرنالديز، الحلاج السعي إلى المطلق، تر : مجموعة من الباحثين، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2011.

برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنورُ وأظهر وأقدم من القِدَمِ سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم » [1] هذا التفسير الذي يصدِّقه الحديث المشار إليه آنفًا: « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورَ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ »[2]، وحديث : « كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ » [3] ، هذا بالإضافة إلى الأحاديث المستأنَس بها قوله صلى الله عليه وسلم فيما يُنسب إليه : « لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ، وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لِأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لَأُحِبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ

– محمد جلال شرف، الحلاج الثائر الروحي في الإسلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1970.

– عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط02، 1964، ص60 – 91.

– علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط01، 1984، ص 173– 276.

[1]– الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، جمع : قاسم محمد عباس، رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2002، ص 162.

[2]– حكم عليه ناصر الدين الألباني بالوضع ، يُنظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ،ج01، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط01، 1992، ص 473.الحديث رقم [302]، وأصح منه ما جاء بلفظ :« كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ » والذي رواه أبو بكر بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار ،ج07، تح : كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط01، 1409هـ ، ص329، الحديث رقم [36553] ، وأورده محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج02، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط03، 1988، الحديث رقم [4581].

[3] – رواه الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ،ج02، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1990، ص672، الحديث رقم [4228]، حكم عليه محمد ناصر الدين الألباني بالوضع، يُنظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة،ج01، مرجع سبق ذكره ، ص 88، الحديث رقم [25].

ادْعُنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ» [1] ، والحديث الآخر : « أَوْحَى اللهُ إلى عِيسَى عَلَيهِ السَّلَام: يَا عِيسَى آمِنْ بِمُحَمَّدٍ، وَأْمُرْ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ أُمَّتِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَلَوْلَا مُحَمَّدٍ مَا خَلَقْتُ آدَمَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٍ مَا خَلَقْتُ الجَّنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَقَدْ خَلَقْتُ العَرْشَ عَلَى المَاءِ فَاضْطَرَبَ فَكَتَبْتُ عَلَيْهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فَسَكَنَ » [2] فهذه الأحاديث وغيرها رسمت معالم نظرة جديدة، سيتلقَّفها بعد ذلك ابن عربي وعبد الكريم الجيلي، ويطوِّرون من خلال نظرية أشمل، وهي نظرية الإنسان الكامل.

مما لاشك فيه أنَّ منطوق الأحاديث السابقة؛ التي تلقفها المخيال / العرفان الصوفي بالقبول ذوقا وكشفا، تصطدم اصطداما مباشرا مع المؤسسات الدينية الرسمية (الفقهاء، المحدِّثون)، ولهذا يمكن القول : إن نظرية الحقيقة المحمدية والإنسان الكامل، هي محل خلاف بين التصوف والفقه، ومردُّ ذلك يرجع لاختلاف المنطلقات الدينية والفكرية بينهما.

3) تَجَلِيَّاتُ الحَقِيقَةِ المُحَمَّدَيَّةُ فِي الأَدَبِ الصُّوفِيِّ :

إنَّ الحقيقة المحمدية لم تبرز في منجز أدبي صوفي كما برزت في المدائح النبوية، حيث إن هذه الأخيرة توزعت حول محبته صلى الله عليه وسلم وذكر فضائله وهديه وسيرته ومعجزاته، وهي محل قبول عند عموم المسلمين، بخلاف الكلام عن فكرة الحقيقة المحمدية، وما يتفرع عنها من أوجه بدعية وشركية كدعائه وطلب المدد منه والتوسل إليه، وبالجملة الخروج به صلى الله عليه وسلم

[1] – رواه الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ،ج02، مرجع سبق ذكره، ص672، الحديث رقم [4228]، حكم عليه محمد ناصر الدين الألباني بالوضع، يُنظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة،ج01، مرجع سبق ذكره ، ص 88، الحديث رقم [25].

[2] – رواه الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ،ج02، مرجع سبق ذكره، ص671 ، الحديث رقم [4227] ، قال عنه محمد ناصر الدين الألباني: « لا أصل له » سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ،ج01، مرجع سبق ذكره، ص448، الحديث رقم [280].

من حيز البشرية إلى فضاءات نورانية ما كان ليرضى بها عن نفسه، وهو القائل :« لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ » [1] والإطراء كما هو معروف هو مجاوزة الحد في المديح والإفراط فيه، فالقارئ لكثير مما قاله الصوفية خاصة في العصور المتأخرة يلحظ أنهم جعلوا من الحقيقة المحمدية أعظم وأقصى ما يمكن أن يقال « لأنها تتجاوب مع تحليق الخيال، ومع المبالغة الشعرية، وقد مدّهم أصحاب السيرة والخصائص والدلائل بفيض من هذه الروايات الغيبية، التي تثير المخيلات، وتفسح المجال أمام القول الشعري » [2]، وقد برز في هذا المضمار من الشعراء ابن عربي وجمال الدين يحي بن يوسف الصرصري (ت656هـ)، وإبراهيم الدسوقي (ت676هـ)، والسيد البدوي (ت675هـ)، وغيرهم ممن سنمثل بشعرهم.

والمتأمل فيما كتبه الصوفية عن الحقيقة المحمدية يلمح ظاهرة ازدواجية في ذكر الذات المحمدية، بين اعتباره ذاتا نبوية مرسلة، وبين كونه حقيقة ونورا إلهيا، وقد اجتمع الأمران عند البوصيري في بردته، ونحن في النصوص المقبلة يهمنا الأمر الثاني؛ لأنه المعبر عن نظرية الحقيقة المحمدية : يقول البوصيري في بردته ملمحا إلى أنَّ الحقيقة المحمدية هي علة وجود الأكوان، فلولاه لما كان شيء، وأنه أكمل الخلق عند الله، لا يدانيه ملك مقرب ولا نبي مرسل [3]:

---

[1] – رواه محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج02 ، مرجع سبق ذكره، ص167. الحديث رقم [3445]، ورواه كذلك الإمام مالك وأحمد وغيرهما.

[2] – محمود سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، دار الفكر، دمشق، ط01، 1417هـ، ص 249.

[3] – إبراهيم الباجوري، شرح البردة للإمام البوصيري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط02، 1993، ص40-41.

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةَ مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجْ الدُّنْيَا مِـــنَ العَـــدَمِ

مُحَمَّدٌ سَـــيِّدُ الكَـــوْنَيْنِ وَالثَّقَـــلَ يْنِ وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

ويقول في بيان أن الأنبياء كلهم يستنيرون بنوره، فهم بهذا المعنى بعض نوره، وهو أبٌ لهم في الروحانية، كما سبق[1] :

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُـوهُ فِي عِلْـمٍ وَلَا كَـــرَمِ

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

مُنَـزَّهٌ عَنْ شَرِيـكٍ فِي مَحَاسِنِهِ فَجَوْهَـرُ الحُسْنِ فِيهِ غَيْرِ مُنْقَسَمِ

ونجد أن ابن عربي قد أشار إلى خصائص ومميزات الحقيقة المحمدية كما تصورها الصوفية، وذلك في قوله [2] :

وَيَكُونُ هَذَا السَّيِّدُ العَلَمُ الَّذِي جَرَّدْتَهُ مِنْ دَوْرَةِ الخُلَفَاءِ

وَجَعَلْتَهُ الأَصْلَ الكَرِيمَ وَآدَمُ مَا بَيْنَ طَينَةِ خَلْقِهِ وَالمَاءِ

وَنَقَلْتَهُ حَتَّى اسْتَدَارَ زَمَانُهُ وَعَطَفْتَ آخِرَهُ عَلَى الإِبْدَاءِ

[1] – المصدر نفسه، ص46– 48.

[2] – محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية ،ج01، مرجع سبق ذكره، ص 46 –47.

وأيضا مما يذكر في هذا الصدد ما قاله محمد بن مصطفى بن زكريا الدروكي (ت 713هـ) [1]:

يَا قُطْبَ دَائِرَةِ الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ لَوْلَاكَ لَمْ يَكُنْ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ

مُذْ كُنْتَ أَوَّلَهُ وَكُنْتَ أَخِيرَهُ فِي الخَافِقِينَ لِوَاءُ مَجْدِكَ يَخْفِقُ

كُنْتَ النَّبِيَّ وَآدَمُ فِي طِينَةٍ مَا كَانَ يَعْلَمُ أَيَّ خَلْقٍ يُخْلَقُ

ويقول كذلك ابن نباتة المصري [2] :

لَوْلَاهُ مَا كَـــانَ أَرْضٌ لَا وَلَا أُفُقٌ وَلَا زَمَانٌ وَلَا خَلْقٌ وَلَا جِيلُ

وَلَا مَنَاسِكٌ فِيهَا لِلْهُدَى شُهُبٌ وَلَا دِيَّارٌ بِهَا لِلْوَحْـــيِ تَنْزِيلُ

ويقول العفيف التلمساني [3] :

عُيُونُ الحَيَا جُودِي لِتُرْبَةِ يَثْرِبِ بِدَمْعٍ هَتُونٍ وَدْقُهُ مُتَصَوِّبِ

عُودِي بِطِيبٍ مِنْ سَلَامِي طِيبُهُ نَسِيمُ الصَّبَا النَّجْدِيِّ يَا خَيْرَ طَيِّبِ

بَلَادٌ بِهَا لِلْوَحْيِ مَرْبَاً وِمَرْبَعُ وَمُنْتَجَعُ الغُفْرَانِ عَنْ كُلِّ مُذْنِبِ

---

[1] – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج06، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، ط02، 1972، ص11.

[2] – ديوان ابن نباتة المصري، تح : عمر موسى باشا، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1972، ص 80.

[3] – عفيف الدين التلمساني، الديوان، ج01، تح : يوسف زيدان، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط02، 2008، ص 111- 112.

وَحَيْثُ الكَمَالُ الطَلْقُ وَالمَرْكَزُ الَّذِي إِلَيْهِ انْتَهَى دَوْرُ المُحِيطِ المُكَوْكَبِ

أَفَاضَتْهُ أَنْوَارُ الغُيُوبِ عَلَى المَدَى إِفَاضَةَ وَهْبٍ خَارِجٍ عَنْ تَكَسُّبِ

فَأَخْبَرَ عَمَّا غَابَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي يُبَرِهُن بِالإِعْجَازِ فِي كُلِّ مَطْلَبِ

إِذَا نَظَرَتْ عَيْنَا بَصِيرَتِهِ إِلَى حَقِيقَتِهِ المثْلَى فَأَحْسِنْ وَأَطْيِبِ

يَرَى بَرْزَخَ البَحْرَيْنِ كَوْنًا مُكَوَّنًا وَمْطَلَعُهُ فِي حَدِّه المَتَرَتِّبِ

وحتى المغاربة قد أدلوا بدلوهم كذلك، وإن كان الغالب عليهم هو البعد عن الغلو والشطط في مثل هذه القضايا، فنجد أن ابن زمرك الأندلسي (795هـ) قد ذكر الحقيقة المحمدية في قصيدة طويلة له، منها هذه الأبيات [1]:

وَحَسْبُكَ أَنْ سَمَّاكَ أَسْمَاءَهُ العُلَا وَذَاكَ كَمَالٌ لَا يُثَابُ بِنُقْصَانِ

وَأَنْتَ لِهَذَا الكَوْنِ عِلَّةُ كَوْنِهِ وَلَوْلَاكَ مَا امْتَازَ الوُجُودُ بِأَكْوَانِ

وَلَوْلَاكَ لِلَأَفْلَاكِ لَمْ تَجْلُ نَيِّرًا وَلَا قُلِّدَتْ لَبَاتُهُنَّ بِشُهْبَانِ

وقد تناول الحلاج الحقيقة المحمدية نثرا في طاسين السراج [1]؛ الذي يشير فيه إليها، بأبدع كلام وأعمق تعبير، فيقول : « سراج من نور الغيب، وبدا وعاد،

[1] – محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، تح : محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1997، ص 496.

وجاوز السراج وساد، قمر تجلى من بين الأقمار، برجه في فلك الأسرار، سمَّاه الحق ((أميًّا)) لجمع همِّته، و((حرميًّا)) لعظم نعمته، ومكيًّا لتمكينه عند قربه، شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره، فأظهر بدره، أضاء سراجه من معن الكرامة، ما أخبر إلا عن بصيرته، ولا أمر بسنته إلا عن حقِّ سيرته، حضر فأحضر، وأبصر فخبر(...) ما كان في الآفاق ووراء الآفاق ودون الآفاق أظرف وأشرف وأعرف وأنصف وأرأف وأخوف وأعطف من صاحب هذه القضية، وهو سيد البرية، الذي اسمه (أحمد)، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أوجد، وهمته أفرد، يا عجبا ما أظهره وأنضره وأكبره وأشهره وأنوره وأقدره وأبصره، لم يزل كان، كان مشهورا قبل الحواديث والكواين والأكوان، ولم يزل كان مذكورا قبل القبْل، وبعد البعد والجواهر والألوان، جوهري صفويٌّ، كلامه نبويٌّ، علمه علويٌّ، عبارته عربيٌّ، قبيلته ((لا مشرقيٌّ ولا مغربيٌّ))، جنسه أبويٌّ، رفيه رفويٌّ، صاحبه أميٌّ، بإشارته أبصرت العيون، به عُرفت السرائر والضمائر، والحق أنطقه، والدليل صدقه، والحق أطلقه، هو الدليل، وهو المدلول، وهو الذي جلا الصدأ عن الصدر المغلول، هو الذي أتى بكلام قديم، لا محدث ولا مقول، ولا مفعول بالحق موصول غير مفصول، الخارج عن المعقول » [2]

ويقول كذلك فيه في الطاسين نفسه : « العلوم كلها قطرة من بحره، الحِكَمُ كلها غَرْفَةٌ من نهره، الأزمان كلها ساعة من دهره، الحق به، وبه الحقيقة، هو الأول في الوصلة، هو الآخر في النبوة، والباطن بالحقيقة، والظاهر بالمعرفة، ما وصل إلى علمه عالمٌ، ولا اطلع على فهمه حاكمٌ، الحق ما أسلمه إلى خلقه؛ لأنه هو، وأنَّى هو، وهو هو، ما خرج عن ميم (محمد)، ما دخل في حائه أحد، حاؤه

---

[1] – طاسين السراج الذي يتكلم فيه الحلاج عن الحقيقة المحمدية هو أول طواسينه، وفي هذا إشارة إلى أولية هذه الحقيقة، بل إن تأويل طس، تدلُّ عليه، فالطاء = طه، والسين = ياسين، النون = نور الحق، أما السِّراج فمنه خلقت الأكوان، ومنه يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور.

[2] – الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، مصدر سبق ذكره، ص 161 – 162.

ميم ثانية، والدال ميم أوله، دال دوامه، ميمه محلُّه، حاؤه حاله، حاله ميم ثانية، أظهر مقاله، أبرز أعلامه، أشاع برهانه، أنزل فرقانه، أطلق لسانه، أشرق جنانه، أعجز أقرانه، أثبت بنيانه، رفع شانه » [1]

ويقول حسين بن محمد الدِّيار بَكْري ذاكرا الحقيقة المحمدية في مقدمة كتابه : « الحمد لله الذي خلق نور نبيه قبل كل أوائل، ثم خلق منه كل شيء من الأعالي والأسافل، ثم أودعه في الأصلاب الطيبة الجلائل، ورباه في الأرحام الطاهرة من الرذائل، فقلبه في الآباء والامَّهات الجزائل... » [2]

النَّتَائِجُ:

مما سبق يمكن إجمال رؤية الصوفية للحقيقة المحمدية في النقاط التالية:

*/ إن الصوفية يرون أنَّ الحقيقة المحمدية نورٌ أزليٌّ منه انشقت الأنوار وخلق الخلق جميعًا.

*/ الحقيقة المحمدية هي التَّعين الأول في العماء، ومنه وعنه صدرت الموجودات، فلولاها لما كان خلق ولا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب.

*/ إن الحقيقة المحمدية في الطرح الصوفي لا تخرج عن كونها، برزخ جامع وفاصل، وحقيقة باطنة مضاهية للأسماء الإلهية، فهو بهذا المعنى بشري بحسب ظاهره، إلهي بحسب باطنه.

---

[1] – المصدر نفسه، ص 163.

[2] – حسين بن محمد الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج01، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 02.

*/ اعتماد الفكر الصوفي في تأسيسه لمفهوم الحقيقة المحمدية على خلفيات دينية، ترجع للأحاديث النبوية؛ الصحيحة من جهة والمشكوك فيها ثبوتا ودلالة من جهة ثانية.

*/ لقد استوعبت المنجزات الأدبية الصوفية الحقيقة المحمدية، وقد كان أكثر ظهور لها في المولديات وقصائد المديح النبوي.

التَّوْصِيَّاتُ:

*/ العمل على استقصاء النظريات العرفانية في المصادر الصوفية المختلفة، ومعرفة الأنساق الثقافية المختلفة التي أسهمت في إنتاج هذه النظريات الوافدة في كثير من مفاهيمها.

*/ تحقيق القول في التفريق بين منهج الصوفية في الحقيقة المحمدية ومنهج غيرهم من الفرق الأخرى كالشيعة القرامطة والباطنية، ومدار الاختلاف، والذي جعل كثيرا من ردَّ على الصوفية ألحقهم بالقرامطة والباطنية والشيعة.

*/ ضرورة تقريب وجهات النظر بين أهل السنة والصوفية فيما يخصُّ الحقيقة المحمدية، وغيرها من النظريات الفلسفية الأخرى.

قَائِمَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ:

[1] – إبراهيم الباجوري، شرح البردة للإمام البوصيري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط02، 1993.

[2]– أبو بكر بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار ،ج07، تح : كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط01، 1409هـ .

[3] – أبو عيسى الترمذي، السنن، ج04، تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط02، 1975.

[4]– أبو الفدا إسماعيل العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج01، تح : عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2000.

[5]– أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج06، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، ط02، 1972.

[6]– أبو المحاسن محمد بن خليل الطرابلسي، اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع، تح : فواز أحمد زمرلي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط01، 1415هـ.

[7] – أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة ويليها كتاب تأويل الشطح، تح : قاسم محمد عباس، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا / لبنان، ط01، 2004.

[8]– أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط01، 2000.

[9] – الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ،ج02، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1990.

[10] – الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، جمع : قاسم محمد عباس، رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2002.

[11] – حسين بن محمد الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج01، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت.

[12]– رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط01، 1999.

[13] – زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج01، مطبعة الاعتماد، مصر، ط01، 1938.

سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة)، دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 1981.

[14] – عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تح : عبد العال شاهين، دار المنار للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط01، 1992.

[15]– عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط01، 1997.

[16] – عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار السيرة، بيروت، لبنان ،ط02، 1987.

[17] – عفيف الدين التلمساني، الديوان، ج01، تح : يوسف زيدان، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط02، 2008.

[16] – علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح : محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، 2004.

[17]– محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ج03، تح : محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط01، 1422هـ.

[18]– محمد بن يوسف الصريحي، ديوان ابن زمرك الأندلسي، تح : محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، 1997.

محمد ناصر الدين الألباني :

[19]– سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج01، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.

[20]– التوسل أنواعه وأحكامه، تح : محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط01، 2001.

[21]– سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ،ج01، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط01، 1992.

[22]– موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني، ج03، جمعه: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء، اليمن، ط01، 2010.

[23]– صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج01، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط03، 1988.

[24] – محمود سالم محمد، المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، دار الفكر، دمشق، ط01، 1417هـ.

محي الدين بن عربي:

[26]– فصوص الحكم، تح: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، دت.

[27]– الفتوحات المكية، ج02، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، 1992، ط01.

[28] – ابن نباتة المصري، الديوان، تح : عمر موسى باشا، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1972.